العراق ـ فيتنام: بعض عناصر الوصل والفصل

يحيى اليحياوي*

■ في الثامن عشر من تشرين الاول (أكتوبر) الماضي، سأل صحافي بمحطة «اي.بي.سي» الأمريكية الرئيس بوش عن رأيه في تشبيه توماس فريدمان (من جريدة «نيويورك تايمز») للحرب الدائرة بالعراق بالحرب الفيتنامية، أجاب الرئيس الأمريكي بنبرة ملؤها الحسرة المشارفة على الندم: «قد يكون معه حق».

هو اعتراف متأخر، لطالما تهرب الرئيس الأمريكي منه حتى باضماره لحقيقته وتبرم عن البوح به أو اقتصر على مجاهرة بعض من مقربيه بشأنه، لكن اشتداد ضربات المقاومة العراقية بشهر تشرين الاول (أكتوبر) (قتلها خلاله فقط لأكثر من مئة جندي أمريكي) أثناء عن المكابرة في استحضار ذلك اليوم «الأسود» (يوم الفاتح من كانون الثاني/يناير من العام 1968) عندما شنت قوات الفيتكونغ أكبر حملة عسكرية على القوات الأمريكية والفيتنامية الجنوبية، عجلت وأشارت من حينه للعد التنازلي العكسي للانسحاب الأمريكي من هناك.

ليست الغاية هنا الاتكاء على هذا الاعتراف الصريح بتشابه الحالتين للتوكيد على ذات التشابه، فهو كان قائما ومؤكدا لدينا منذ اليوم الأول. الغرض هنا انما تبيان بعض من عناصر الوصل والفصل التي تجعل الحالتين اياهما شبيهتين ومختلفتين في الآن معا، على مستوى المظهر كما بالعديد من معطيات الجوهر.

هو ليس ترفا فكريا من لدنا على الاطلاق، بقدر ما هو تذكير بعبر حرب دارت رحاها من حوالي أربعة عقود من الزمن، لم تستفد منها الادارات الأمريكية المتعاقبة، بل ولم تستحصرها عندما عزمت على غزو العراق واحتلاله... ولا يبدو لنا أنها ستستفيد من الحالتين معا فيما تعتزم شنه من غزوات و«فتوحات» قادمة.

واذا لم يكن بالامكان، منهجيا على الأقل، التجاوز على تباين السياق أو القفز على اختلاف المرجعيات الناظمة للمقاومة العراقية كما التي ثوت خلف اندلاع المقاومة الفيتنامية، فانهما يعبران معا عن حالة رفض جماعية لانزال عسكري ضخم بشرا وعتادا، لم يكن ثمة من سبيل أنجع لمواجهته غير سبيل حرب العصابات كآداة للاستنزاف الطويل المدى، ثم للتحرر والاستقلال بحتمية الأمور.

ثمة بين المقاومة الفيتنامية، التي اندلعت من العام 1968 الى العام 1975، والمقاومة العراقية التي اندلعت مباشرة بعد سقوط بغداد في التاسع من نيسان (أبريل) من العام 2003، ثمة بينهما أكثر من نقطة وصل تجعل جانب المقارنة واردا وموضوعيا الى حد بعيد:

* فغزو العراق، كما غزو فيتنام، تم في ظل نفس الحزب (الحزب الجمهوري) على خلفية من وجود أسلحة دمار شامل بالعراق، وعلى أساس من «تواجد شيوعي» بشمال فيتنام يهدد مصالح أمريكا بجنوبه، ويقدم الولاء لغريم سوفييتي تتقدم منظومته بالمنطقة كالنار في الهشيم.

لا تتشابه المسوغات المقدمة هنا في المدخل فحسب (مدخل الخطر الوارد الذي يحتاج الى رد استباقي عاجل)، بل وأيضا في مسوغات المخرج: فالرئيس نيكسون كان يقول في حينه «ستكون كارثة كبرى اذا سحبنا قواتنا من فيتنام. لن تكون كارثة فقط بالنسبة لفيتنام، ولكن بالنسبة للولايات المتحدة وبالنسبة لبقية السلام في كل العالم... سيكرر الشيوعيون اذا انسحبنا المذابح ذاتها التي ارتكبوها في الماضي»... ويقول الرئيس بوش «ستنهزم أمريكا وسينتصر الارهابيون اذا سحبنا الأبناء من العراق دون اكمال المهمة التي من أجلها دفعنا بهم» (بالأولاد يقصد).

وبقدر تشابه مدخلات المسوغات ومخرجاتها، تتشابه أيضا الحرب الكلامية التي تراشق الحزبان في خضمها على خلفية من ورط الآخر: فالجمهوريون اليوم يتهمون الديموقراطيين بالتقصير، عندما يشيرون الى تقاعس الرئيس كلينتون في ضرب القاعدة وتحييد الرئيس العراقي في حينه، تماما كما حملوا (أثناء اشتداد الحرب بفيتنام) الرئيسين جونسون وكنيدي المسؤولية في قرارهما ارسال «الأولاد» الى هناك دونما استشراف قبلي للتبعات.

يبدو بالحالتين معا، أن الادارة الأمريكية ديموقراطية كانت أم جمهورية، لم تكن تقدر العواقب والتبعات والتداعيات بدقة، فدفعت بالآلاف من الضباط والجنود دونما علم من لدنها بأنها تدفع بهم حتما لخط النار القاتل حتى وان دججتهم بالسلاح والتكنولوجيا.

لم يكن مبالغا حقا ذاك الذي قال بـ«أن نيكسون كان ذكيا ومتعجرفا، وكان ريغان جاهلا ومتواضعا، لكن بوش الابن جاهلا ومتعجرفا» في الآن معا.

* أما نقطة الوصل الثانية بين الحالتين، فتكمن في الضغط النفسي القوي الذي مارسه الناخب الأمريكي على الرئيس نيكسون في انتخابات الكونغرس للعام 1972، ومورس بالقدر ذاته وأكثر على الرئيس بوش في الانتخابات النصفية التي تمت في شهر تشرين الثاني (نوفمبر).. ونظر الى العمليتين معا من زاوية قياس مدى رضى الناخب اياه على سياسة الرئيسين بازاء توجيههما وتسييرهما لمجريات الحربين.

واذا كان دهاء الرئيس نيكسون (الملوح في حينه، على الرغم من عجرفته، بامكانية «سحب الأولاد») قد مكنه من الاحتفاظ بالأغلبية في الكونغرس بغرفتيه مع اعادة انتخابه لدورة رئاسية ثانية، فان جهل بوش وعجرفته جعلاه يفقد حزبه الأغلبية بالغرفتين، ويدفعه مكرها للتعايش القسري مع الديموقراطيين.

والدليل على ذلك أن ضغط الناخب الأمريكي لقي تجاوبا من لدن نيكسون الذكي، الذي سحب 50 ألف جندي سنة قبل الانتخابات (على الرغم من موازاته لذلك وحصاره لفيتنام الشمالية قاعدة المقاومة الخلفية)، في حين أن بوش الجاهل والمتعجرف رفض ذلك جملة وبالتفصيل (سيما بجانب جدولة الانسحاب من العراق)، فتجرع مرارة خسارة الغرفتين تماما كما جر على حزبه ويلات التعايش وعلى قاعدته الانتخابية الحسرة والتذمر.

وعلى هذا الأساس، فان استقالة روبرت مكنمارا انما جاءت تمشيا مع «الرغبة في الانسحاب» من فيتنام (على الرغم من أن الحرب استمرت هناك لسبع سنوات أخرى بعد ذهابه)، في حين أن اقالة دونالد رامسفيلد أتت كتعبير عن «الحاجة الى تغيير الأسلوب»، وارضاء لحزب ديموقراطي ليس من الوارد لديه بالوقت الراهن وبكل الأحوال، سحب الجيش الأمريكي بأكمله من العراق دونما ترتيبات بأرض الواقع هناك، أو جدولة زمنية طويلة لذلك... على الأقل في استحالة «النصر السريع» الذي تبجح به الرئيس.

يبدو بهذه النقطة، أنه في حين عمد نيكسون الى ذكائه في فتح مسالك المفاوضات مع المقاومة الفيتنامية، لا يزال بوش بجهله متعنتا بازاء مقاومة لا يتوانى في نعت أعضائها بالارهابيين وفي أحسن الأحوال بالمتمردين... انه يريد «عودة الأولاد»، ويريد في الآن ذاته «تحقيق النصر».

واذا بات من الثابت في حينه أن ذهاب مكنمارا لم يوقف الحرب، فان ذهاب رامسفيلد اليوم لا يؤشر على ايقاف رحاها بالعراق، سيما وقد طلع قائد الجيوش الأمريكية بالمنطقة (جون أبي زيد) بمقولة أن الانسحاب من هناك سيقوي من شوكة «التشدد الاسلامي»، الذي من شأنه افراز حرب عالمية تماما كما أفرزتها الفاشية بعشرينات القرن الماضي. الورطة كبرى اذن، ومسالك الخروج متعذرة عمليا وعلى المستوى الرمزي، مستوى حفظ ماء الوجه.

* أما نقطة الوصل الثالثة بين الحالتين، فتكمن في تساؤل الأمريكيين اليوم كما البارحة (والفيتناميين والعراقيين معهم) عن الغاية من استمرار الحرب، بعدما تأكد بهتان مسوغات شنها، وبدت علامات الهزيمة على الطرف المعتدي واقعا قائما لا غبار عليه.

بهذه النقطة أيضا، تم التجاوز من لدن نيكسون كما من لدن جونسون كما من لدن بوش الابن عن التبريرات الممهدة للحرب، ليستقر الأمر لديهم بالمحصلة النهائية على المبرر الاسمى: مبرر «الدفع بالديموقراطية» و«خلق حكومة منتخبة، غير فاسدة ومسؤولة».

قد يجد ذات المسوغ بعضا من الوجاهة لدى المواطن الأمريكي المتوسط المعرفة والمجند اعلاميا، والمطالب فضلا عن ذلك بالثبات خلف الرئيس، لكنه (المسوغ أعني) سرعان ما انهار بفيتنام وينهار اليوم بالعراق في ظل مجريات حرب كانت تحصد يوميا من 25 الى 30 أمريكيا بفيتنام، وتحصد اليوم ببلاد الرافدين من 5 الى 10 كعدد متوسط للقتلى.

معنى هذا أنه من الغباء حقا أن يصدق المرء دفع الادارة الأمريكية بـ 600 ألف جندي مجند بفيتنام، وما يناهز الـ 150 ألف بالعراق (جلهم متطوعون) دفاعا عن الديموقراطية أو جريا وراء اقامتها ...من الغباء حقا أن يصدق المرء ذلك وذات المسوغ لم يأت الا بعدما تعاظمت الورطة وتراجعت كفة «النصر السريع» أمام التكلفة البشرية والمادية المتزايدة ناهيك عن انسداد أفق الحل العسكري بتضارب التكتيكات والاستراتيجيات وما سواها.

بهذه النقطة كذلك، يبدو أن سبل التجنيد المعتمدة لم تعد كافية لتسويغ حجم الخسائر.

وبناء على ذلك، فان ما يصل المقاومة الفيتنامية بالمقاومة العراقية، انما تشابه المبررات التي كانت مدعاة قيامهما وكذا خاصية الرؤساء الأمريكان المكابرين بالبداية، المراوغين بنصف الطريق والمجبرين بالمحصلة على الاعتراف بضخامة الورطة واستحالة كسر شوكة المقاومة.

أما عناصر الفصل بين المقاومتين، فتبدو لنا من أربعة مكونات كبرى هي الى الموضوعية أقرب منها الى المكونات الذاتية:

* الأول ويتمثل تحديدا في تباين السياق والظرف التاريخي الذي كون الخيط الناظم لكليهما. فالمقاومة الفيتنامية أتت في ظرف من التوازن الجيوستراتيجي ضمن الاتحاد السوفييتي والصين في ظله العدة والعتاد للمقاومة الفيتنامية (بل لربما عمدت الدولتان معا الى توريط الأمريكان لالهائهم لتصرف عنهما النظر)، ومنحتها فيتنام الشمالية الحضانة المادية وأرضية الانطلاق وزودتها، فضلا عن ذلك، بالمتطوعين... في حين أن شرارة المقاومة العراقية انطلقت في ظل ظرف زمني ميزته الأساس أحادية القطبية، وقدرة الخصم الأمريكي على مراقبة وتجفيف منابع المعونة المتأتية للمقاومة من هذا الحليف أو ذاك، اللهم الا ما توفر لها من عتاد تقليدي، أو ما تسنى لها تصنيعه بطرق بدائية، أو تم لها تحصيله من هذه المافيا أو تلك، أو حصلت عليه كغنيمة حرب.

ولعل ما يزيد من حجم التضييق على المقاومة العراقية أنها تواجه الاحتلال وحكومة الاحتلال، وتواجه أيضا الميليشيات (المنتشرة كالفطير) ذات الأجندة «الشاذة» والمحتمية بهذا البلد الجار أو ذاك، أو المتطلعة للتحول الى جيش لخدمة مشروع فيديرالي ترفضه المقاومة في مضمونه كما بالشكل.

هي نقطة فصل كبرى فيما نتصور، ليس فقط لأن السياق الدولي (والداخلي أيضا) خدم المقاومة الفيتنامية وسهل عليها استهداف العدو، ولكن أيضا لأن تبدل ذات السياق دفع المقاومة العراقية للمقاتلة على أكثر من جبهة: مقاتلة الغريب وحليفه المباشر، ومقاتلة من له أجندة لا تتساوق لا مع الاحتلال ولا مع المقاومة، بقدر ما تتساوق مع مشاريع خارجية أخرى.

* أما نقطة الفصل الثانية، فتكمن في تباين الظروف الجغرافية التي ساعدت المقاومة بالفيتنام على الايقاع بجنود أمريكان لا معرفة لديهم تذكر بأحراش وغابات وكهوف وأنفاق وتضاريس البلاد الوعرة، وجعلت المقاومة العراقية تفعل في فضاءات جغرافية منبسطة، عارية، سهلة الرصد والاستهداف... لكن ذكاءها واكتناز عناصرها لشحنات وطنية ودينية عالية دفعها للتحايل على ذات المعطى، فاعتمدت أسلوب استهداف الاحتلال بعبوات على الطرقات، وبحرب عصابات بالمدن وباطلاق الصواريخ على مواقعه من بعيد، حتى بتطور التكنولوجيا لديه، وتوفره على عشرات من الأقمار الصناعية العسكرية المتخصصة في المتابعة والرصد.

صحيح أن المقاومة الفيتنامية أبدعت في تأجيج الفلاحين مثلا على الاحتلال، وتحويلهم الى حلفاء لها (مقابل حفنة أرز في بعض الأحيان)، لكنها لم تكن تفعل (كما هو حال المقاومة العراقية) بمجال تحالف عليها في خضمه الأغراب وذوى القربى سواء بسواء.

هو معطى نسبي الى حد بعيد، ليس فقط لأن لكل مقاومة ظروفها وسياقها الخاص، ولكن أيضا لأن لكل منها ابداعاته وسبل تحايله على اكراهات الجغرافيا وتكتيكات الاحتلال ومطاردة العملاء.

* أما عنصر الفصل الثالث، فيتمثل في الرافعة الاعلامية القوية التي وسطت لمجريات الحرب بفيتنام، وتم توظيفها بامتياز من لدن المقاومة الفيتنامية، بجهة ابراز المجازر التي يرتكبها الجيش الأمريكي هناك، كما بجهة تعاطف كبار الصحافيين (بالواشنطن بوست وبالنيويورك تايمز تحديدا) مع مطلب «عبثية الحرب هناك»، ناهيك عن التذمر الشعبي العارم الذي ترتب عن الخسائر البشرية في مواجهة «ميؤوس من محصلتها» يقول البعض... في حين أن المقاومة العراقية خضعت منذ اليوم الأول ولا تزال، لحملات واسعة من التعتيم والتضليل وحظر على الاعلام (باسم الأمن القومي) تغطية عملياتها، أو التعامل معها (بأمريكا كما بالعراق) خارج منطق الارهاب والتمرد.

هو معطى سلبي أيضا وبكل المقاييس، لكن المقاومة العراقية تحايلت عليه عبر تمرير ما يتسنى لها تسجيله من عمليات (وارساله لوسائل الاعلام) أو عبر توظيفها الذكي لشبكة الانترنت وما سواها...لكن ذلك يبقى والى حد بعيد دون جماهيرية التلفزيون وقدرته على التأثير في الرأي العام.

* أما عنصر الفصل الرابع، فيكمن في مزاوجة البعدين العسكري والسياسي من لدن المقاومة الفيتنامية، وتشديدها الضربات في البعد الأول كمدخل ضغط لتحصيل مكاسب بالثاني.

واذا كان قبول الادارة الأمريكية الجلوس الى هوشي منه قد أتى كنتيجة لضربات المقاومة الفيتنامية الموجعة، وتأكد الادارة اياها من ضرورة ايجاد مخرج لحفظ ماء الوجه بعدما تأكدت الهزيمة، فان ادارة بوش الابن لا تزال تكابر في القبول بمبدأ الجلوس الى المقاومة العراقية ومفاوضتها بالمباشر المعلن.

صحيح أن المقاومة العراقية لم يتسن لها بعد تحقيق النصر على القوات الأمريكية (معنويا وبأرض المعركة) كما تسنى للمقاومة الفيتنامية ادراكه قبل ارغامها على محاورتها. وصحيح أن مستوى خسارة الأمريكان بالعراق لم يبلغ بعد مستوى ما بلغته بفيتنام (65 ألف أمريكي، مقابل حوالي 3000 بالعراق لحد الساعة)، لكن المؤكد فيما نتصور أن المقاومة العراقية قد باتت قاب قوسين أو أدنى من اجبار الأمريكان للجلوس اليها ومفاوضتها وفق شروطها...

---

* باحث وأكاديمي من المغرب
elyahyaoui@elyahyaoui.org

و داوها بالتي كانت هي الداء!

أحمد موفق زيدان *

■ الخبر الذي نشرته صحيفة النيويورك تايمز عن قيام مقاتلي حزب الله اللبناني بتدريب مقاتلي جيش المهدي بزعامة مقتدى الصدر، وزيارات بعض قادة حزب الله المتكررة إلى العراق بتنسيق إيراني ينبغي أن يثير الكثير من التساؤلات، ويطرح أسئلة جدية عن حزب الله وإيران فيما إذا كانت طهران قادرة بالفعل على لعب دور حقيقي وجدي كما تدعوها واشنطن من أجل استقرار العراق، أم أن ذلك كمثل من يداوها بالذي كان هو الداء.

المعلومات التي نشرتها النيويورك تايمز بالتأكيد سيكون لها انعكاسات وأبعاد حقيقية وجدية على المدين المتوسط والبعيد أولها امتدادات الحرب العراقية التي لم تعد عراقية خاصلة ، وإنما تعدتها إلى خارج الحدود، الأمر الذي ينبغي أن يثير مخاوف من حرب طائفية ممن لم يثار حتى الآن ، هذه الحرب التي تندلع ويكتوي بلهيبها الشعب العراقي الآمن، وفي حال استمرارها فلهيبها لن يقتصر على العراق وداخله، خصوصا وأن التدخل في الشأن الطائفي العراقي يأتي من حزب ينظر إليه البعض على أنه حزب مقاوم بعيداً عن الطائفية والفئوية والحزبية، مثل هذا الكشف من قبل الصحيفة الأميركية يعني أن الحزب له مصالحه الطائفية والفئوية التي تبعد ألقه الذي تلفع به أيام حربه مع العدو الصهيوني صيف العام الجاري.

هذا الكشف ينبغي أن يقف أمامه المسؤولون العراقيون إن كانوا يقفون على مسافة واحدة من الطائفية فمستشار الأمن القومي العراقي موفق الربيعي الذي كان يتحدث على القنوات الفضائية الأجنبية عن امتدادات للمقاومة العراقية في دول الخليج بالدعم المالي ونحوه، عليه الآن أن يتحدث عن هذا التدخل الواضح من قبل حزب الله في دعم مليشيات المهدي المعروفة للقاصي والداني بعثوها فسادا في مساجد وأحياء أهل السنة العراقية.

بالتأكيد المعلومات التي رشحت طوال الأعوام الماضية عن قيام مقاتلي حزب الله اللبناني بتدريب ومساعدة مليشيات جيش المهدي بزعامة الصدر لم تكن كافية لوسائل الإعلام العربية والأجنبية من أجل تسليط الأضواء عليها و الحديث عنها على الرغم من تصريحات وزير الداخلية الإيراني السابق وسفير طهران إلى دمشق سابقا أيضا أية الله محتشمي إلى وسائل الإعلام عن مشاركة حزب الله في الحرب الإيرانية العراقية وكذلك عن مشاركته في معارك اليمن الأخيرة إلى جانب الحوثي وغيرها .

العجيب أن تستنجد الإدارة الأميركية بقوى ودول كانت قد اتهمتها حتى الأمس القريب بتصعيد الوضع في العراق، ولكن لكل حساباته، وما حصل في العراق هو نصر إيراني بامتياز دون إطلاق طلقة إيرانية، هل كنا نتخيل أن يُقدم رئيس عراقي على زيارة إيران ويضع إكليلا من الزهور على قبر الخميني بعد تلك الحرب الضروس بين البلدين والتي راح ضحيتها مئات الآلاف من العراقيين، إن من يتخيل ذلك أن يحصل كمن يتخيل أن يأتي يوم الرئيس الإيراني أحمدي نجاد ليضع إكليلا من الزهور على قبر الرئيس العراقي السابق صدام حسين هذا إن حُقَّ لنا أن نتخيل .

الشيخ الشيعي حسين المؤيد وغيره من شيوخ الشيعة الوطنيين في العراق يتحدثون عن الدور الإيراني كدور يسعى إلى بناء إمبراطورية فارسية، على حساب العراق ووحدته، كل ذلك يحصل بعد أن غرقت أقدام المارينز في الوحل العراقي، فاستنجد المارينز بحرس الثورة الإيراني، الذي لبى نداءه الريس الإيراني أحمدي نجاد فاستعد للمساعدة، بينما العراق يغرق منذ ثلاث سنوات في الحرب ويستضرخ الكل لكنه لم يصغ أحد لمناشداته ، فحصل كما وصفه زعيم القاعدة في العراق أبو حمزة المهاجر أن أيقظت إمبراطورية الروم إمبراطورية فارس ..

إن التصريحات التي أدلى بها الأمين العام السابق لحزب الله صبحي الطفيلي والتي قال فيها " لا يمكن أن نكون شرفاء في لبناء وعملاء في العراق ، وتحرير بيت المقدس ليست مسألة قتال شهر واحد" وقبلها اتهاماته للحزب الذي قاده لفترة ليست قصيرة أنه يقوم بدور حراسة الكيان الصهيوني، كلها مع ما يحصل من ترقية الأجندة الإيرانية في لبنان والمنطقة العربية، مشفوعا مع ما كشفته النيويورك تايمز بغض النظر عن نفي الحزب الأخير لهذه التقارير كل ذلك يدفع إلى التفكير مليا بالاستراتيجية الحقيقية للحزب والأهداف والمرامي التي يرنو إليها من وراء خططه وسياساته .

ليس الغريب أن تتعامل إيران بهذا المنطق وبهذه الطريقة وهي التي تتفاخر بأن إمبراطوريتها تعود إلى أكثر من 2500 عام ماضية، لكن الغرابة كل الغرابة في الدول العربية وبجانبها الحركات الإسلامية التي توفر لها الغطاء الكافي والشامل للعب هذا الدور، دور يتناقض مع المصلحة العربية والأمن القومي العربي ، فالدول العربية بتقاعسها وتشرذمها وضعفها وخوف البعض منها ظانة أن أميركا هي أميركا عام 2000 كل ذلك عوامل شجع إيران على التغول على المنطقة العربية، أما الحركات الإسلامية ففي مجملها للأسف أعطتها الشرعية والغطاء الإسلامي الكامل على تصرفاتها وفي الفم ماء كثير.

---

* اعلامي من سورية

ما هي خلفية الانفتاح السوري على العراق؟

محمد خليفة*

■ الزيارة التي قام بها وزير الخارجية السوري وليد المعلم الى العراق بتاريخ 2006/11/20 تفتح صفحة جديدة في العلاقات بين البلدين، كما أنها تدلّ على عمق التغيرات التي تشهدها المنطقة العربية. فهذه الزيارة وان بدت كأنها زيارة تشاور واستعداد لاستئناف العلاقات المقطوعة بين البلدين منذ عام 1980، الاّ أنها ما كانت لتحدث لولا وجود الضوء الأمريكي الأخضر.

فقد حاولت سورية في السابق، وبعد احتلال الولايات المتحدة للعراق، أن تفتح خطوط اتصال مع الحكومة العراقية الجديدة. لكن كانت هناك معارضة أمريكية لهذا التقرّب، لأن الولايات المتحدة كانت لا ترغب أن تقترب سورية من العراق، وسعت الى اضعاف سورية وعزلها على المستويين العربي والدولي، اعتقاداً منها أن هذه الوسيلة قد تؤدي الى انهيار النظام فيها. فأمرت حلفاءها الأوروبيين بتجميد مفاوضات الشراكة معها، كما أمرت الدول العربية الحليفة لها بقطع حبل الودّ معها. وذهبت الى مجلس الأمن فأصدرت القرار (1559) الذي يدعو الى خروج القوات السورية من لبنان.

وجاء مقتل الحريري في شباط (فبراير) 2005 ليشكّل ضغطاً أمريكياً اضافياً على سورية، اذ سرعان ما اتهمت الولايات المتحدة سورية بهذه الجريمة، وسارعت الى جعل قضية الحريري قضية دولية بهدف ازعاج النظام السوري، وعيّنت محققاً دولياً في هذه القضية هو الألماني ديتلف ميلس الذي اتهم سورية والنظام اللبناني صراحة بالوقوف وراء هذه الجريمة، وانشق بعض رموز النظام السوري وشكّلوا جبهة معارضة هدفها تدمير النظام، الذي كانوا فيه، بمساعدة الولايات المتحدة.

لكن سورية رفضت الخضوع للتهديد والتخويف، وقررت الالتفاف على هذا الحصار الأمريكي من خلال تمتين العلاقات مع روسيا والصين وايران، وأصبحت سورية في رعاية هذه الدول الثلاث، فقوي موقفها ولم تعد خائفة من التهديد الأمريكي. ووجدت الولايات المتحدة أن سورية أصبحت قوية وأنه لا مجال بعد الآن لعزلها ودفع النظام فيها الى الانهيار. ولهذا قررت اشعال حرب ضدها لتدميرها، وأوعزت الى حليفتها اسرائيل بشن حرب على لبنان للقضاء على حزب الله وتدمير الدولة اللبنانية واشاعة الفوضى في لبنان، ونقل هذه الفوضى بعد ذلك الى سورية وتدميرها. فحدث عدوان تموز (يوليو) 2006 على لبنان، لكن المقاومة اللبنانية فاجأت اسرائيل والولايات المتحدة والعالم أجمع بصمودها الأسطوري، فاضطرت اسرائيل الى ايقاف العدوان من دون تحقيق أي نتيجة. وشكّلت هذه الهزيمة الاسرائيلية ضربة مؤلمة للمشروع الأمريكي في المنطقة العربية، ووصل صدى هذه الهزيمة الى الداخل الأمريكي، خاصة أنها ترافقت مع الفشل الأمريكي المستمر في العراق. فتعالت الأصوات في الولايات المتحدة تطالب بالانسحاب من هذا البلد، وقام الكونغرس الأمريكي بتشكيل لجنة برئاسة وزير الخارجية الأمريكي الأسبق جيمس بيكر لبحث سبل انهاء الملف العراقي، وخرج بيكر برؤية تقول، انه لا يمكن تحقيق الأمن والاستقرار في العراق من دون تعاون دول الجوار وخاصة سورية وايران اللتين لهما علاقات واسعة في الداخل العراقي. وتحرّكت الدبلوماسية الأمريكية السريّة عبر بريطانيا نحو سورية، فقام مستشار رئيس الوزراء البريطاني توني بلير بزيارة اليها للتباحث في الموضوع العراقي. كما أرسلت الولايات المتحدة مبعوثين سريين الى ايران للهدف ذاته.

وسرعان ما ظهرت نتائج هذا التحرك الأمريكي، فقام وزير الخارجية السوري بزيارة الى العراق. وفي الوقت نفسه دعا الرئيس الايراني محمود أحمدي نجاد الرئيسين السوري بشّار الأسد والعراقي جلال طالباني للاجتماع معه في طهران حول الموضوع العراقي. لكن ترى ما هو الثمن الذي ستدفعه الولايات المتحدة لكل من سورية وايران حتى قبلا التعاون معها في ايجاد مخرج مشرّف لها من المستنقع العراقي؟ الواقع أن لكل من سورية وايران مصالحهما المختلفة، وبالتالي لا يمكن أن يكون الثمن الذي ستقبضه هاتان الدولتان واحداً، بل كل منهما ستقبض ثمناً مختلفاً.

فبالنسبة الى سورية، لا بدّ للولايات المتحدة من الموافقة على رفع الضغوط عنها والسماح لها بالعودة الى الساحة اللبنانية من دون ارسال جيشها الى هناك، أي أن يكون لها الحقّ في الاشراف على المشهد السياسي اللبناني. كما أنها ستسمح لحلفائها الأوروبيين باتمام اتفاقية الشراكة معها. كما أنها سترفع يدها عن المعارضة السورية وتهمّش موضوع المحكمة الدولية باغتيال الحريري. وأما بالنسبة الى ايران، فان الولايات المتحدة ستغضّ الطرف عن امتلاك ايران للتقنية النووية، وتعترف لها بمصالحها في منطقة الخليج والشرق الأوسط.

ولا شك أن نتائج هذه الاتفاقيات السريّة من هذا النوع بين الولايات المتحدة وكل من سورية وايران ستظهر نتائجها في العراق. وعندها، ستعمل هاتان الدولتان بكل جهدهما لبناء عراق جديد، وتملك كل منهما الوسائل الكافية للتأثير على المشهد العراقي سواء من خلال التحالفات التي تجمع كل منهما مع الأطراف المؤثرة في العراق، أو من خلال الاشتراك في الحملات الأمنية مع الجيش العراقي للقضاء على ظواهر الخروج عن النظام، وبالتالي تخفيف العنف حتى انهائه بشكل كامل. وقد تكون مهمة سورية وايران صعبة، لكنها في الموازين الدولية الراهنة قد تكون الحلّ السحري لكل مشاكل العراق.

---

* كاتب من الامارات
medkhalifa@maktoob.com
www.mohammedkhalifa.com

الامبريالية الخشنة والناعمة

محمد الرحالي*

■ ان المتأمل في الوضع الراهن للعالم العربي يلاحظ انه يعيش نوعين من الحروب، حرب مادية ساخنة وقودها النار والحديد، وحرب باردة و«ناعمة» قناتها الاعلام والصورة. والحربان معا تتمان اما بواسطة متعاونين من العالم العربي او من خارجه تابعين للولايات المتحدة الامريكية، واما بواسطة امريكا نفسها، عند الاقتضاء. العراق ولبنان وفلسطين تشهد بشكل بارز على الدمار الشامل للبلاد والعباد، الذي تعد صوره ابشع من صور الاشرطة الوثائقية المنجزة عن الدمار النازي. والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا اصبح العالم العربي مستهدفا بهذا الشكل الذي لم يشهده في القرن الماضي؟ الجواب البسيط جدا هو ان العالم العربي يحتل موقعا استراتيجيا من الناحية الجغرافية، ومن ناحية ثرواته النفطية التي تتحكم في الاقتصاد العالمي، ومن ناحية تراثه الثقافي والحضاري الذي يقع في تماس مباشر مع ثقافة وحضارة العالم الغربي الاوروبي. هذه العناصر كانت موجودة في القرن الماضي، ومع ذلك لم يكن الدمار بهذه الحدة التي اصبحت تسعى للقضاء على الكيان الوجودي للدول بالمعنى المادي. شق من الجواب يتمثل في ان العالم العربي، مع امتداده الاسلامي اصبح يضم اقوى جيوب المقاومة التي تهدد بالقوة الامبريالية العالمية الجديدة التى ترعاها الولايات المتحدة، خصوصا بعد اندحار النظام «الشيوعي»، الذي كان عائقا ايديولوجيا مقاوما للنظام الراسمالي.كسر المقاومة الآن، ماديا وفكريا، يتم بدعوى محاربة الارهاب الذي اصبح ينسب الى كل حركة اسلامية ترفض الانصياع، رغم ان الامبراطوريات الامبريالية، في الواقع، لا تحتاج الى دعوى؛ لان تضخم القوة لديها يجعلها في غنى عن التبرير العقلاني. وعندما نتفحص دعوى الارهاب الايديولوجية التي تستند اليها امريكا للهجوم على العالم العربي، علما بان امريكا سبق لها ان ادينت اميا بالارهاب في القرن الماضي اثناء حصارها لنيكاراغوا، نلحظ انها في تفاصيلها غير صحيحة. فنظام البعث في العراق قام، الى حد ما، على ايديولوجيا علمانية بعيدة عن التوجه الاسلامي الجهادي، والشيء نفسه ينطبق على الايديولوجيا البعثية بسورية. كما ان حزب الله وحماس يختلفان عن «القاعدة». الاولان يقاومان لتحرير ارض محتلة، اما القاعدة فتسعى، من بين ما تسعى اليه في زعمها، لتحرير العالم العربي والاسلامي من «جاهلية» القرن العشرين، وتحطيم الحضارة الغربية. هذه التفاصيل في الايديولوجيا والاهداف غير هامة بالنسبة للقوة الامريكية، لان القوة تميل الى التبسيط، وفي كثير من الاحيان لا يهمها التحليل المتأني، بل ما يهمها هو ان تحقق اهدافها بشكل آني وسريع. وهذا بالضبط ما يجعل امريكا تضع كوريا الشمالية وايران والعراق، قبل الاحتلال، وسورية ضمن طبقة واحدة غير طبيعية، تسميها محور «الشر»، رغم الاهداف والايديولوجيات المختلفة لهذه الدول. ولمزيد من التضليل، يُستعمل مفهوم «الشر» ذو الحمولة الدينية، تصنيفا اخلاقيا لإحداث تأثير اكبر في المواطن الامريكي. وبذلك يصبح العدو «واضحا ومحددا»، وانتهى الامر. ويصور العدو الارهابي اعلاميا بكونه موجودا في كل مكان لكنه خفي في كل مكان، ويصبح بذلك تمثيلا representation متخيلا لواقع مختلف ومعقد. وعندما يُهاجَم العدو تخفى صور القتلى والدمار، ولا يظهر منها الا ما تسمح به المؤسسة العسكرية. تشمل تقنية الخفاء عدد القتلى كذلك. فبما ان العدو خفي، فان احصاء عدد قتلاه غير مهم، المهم عدد الجنود الامريكيين الذين يقتلون في العراق، او عدد الجنود الاسرائيليين الذين قتلوا في لبنان وفلسطين. وتسمح تقنية اخفاء العدو بالتستر على مئات الآلاف من المدنيين، من الشيوخ والنساء والاطفال الذين قتلوا ويقتلون في العراق وفلسطين ولبنان، كما كان الحال في فيتنام واماكن اخرى من العالم.

غير ان الصور والدراسات المنفلتة من الرقابة الامريكية، تبين ان هذه الدولة، بمساعدة عميلتها اسرائيل في المنطقة العربية، اصبحت فعلا امبراطورية للدمار الشامل، دمار الارض والانسان وجميع مظاهر التحضر والتمدن. فبعد ان كان العراق من ابرز الدول العربية التي حققت تقدما هاما على مستوى التنمية الانسانية والبحث العلمي والتقدم التكنولوجي، أُرجع هذا البلد بشكل ممنهج الى قبائل وطوائف متناحرة.

فدمرت المكتبات والجامعات ونهبت المتاحف وقتل العلماء، ودمرت المدن وبُناها التحتية. وتمكن الاحتلال الامريكي من اتمام خطة تقليص الثقل الديموغرافي الذي كان يمثله العراق في المنطقة. بدات الخطة في السابق باقامة الحصار الشامل الذي كان عبارة عن حرب بيولوجية باردة اودت بمئات الآلاف من العراقيين، اغلبهم من الاطفال والشيوخ، بسبب الامراض والاوبئة التي تسببت فيها ندرة الدواء والغذاء. وهي نفس الخطة التي تطبق الآن في فلسطين وطبقت اثناء الغزو الاسرائيلي للبنان.

وقد بينت دراسة حديثة انجزتها جامعة «جونز هوبكنز» بامريكا ان حوالي 654 الف عراقي قتلوا بعد الاحتلال الامريكي، بنسبة 13,5 في الالف من عدد السكان البالغ 26 مليونا، بمعنى ان العراق ككيان في طريقه الى ان يصبح جزءا من الماضي البابلي. ولامريكا سجل مرموق في هذا الصدد، تجسده الابادة الجماعية للشعب الهندي الامريكي الذي لم يبق منه في امريكا سوى الفلكلور والافلام الهوليوودية.

تُقلب الحقائق في الهيمنة الامبريالية. يصبح المعتدى عليه هو السبب في الدمار الذي حصل ويحصل له، لانه استفز المعتدي. فيلبس الجلاد ثوب الضحية، ويصبح عمله التدميري دفاعا عن النفس. فتقطع امريكا آلاف الكيلومترات الى العراق لتدمر نظامه، المتهالك اصلا، دفاعا عن نفسها وحفاظا على الامن العالمي من اسلحة الدمار الشامل، التي تَبيَّن انها اكذوبة امريكية، في حين تؤكد استفتاءات الرأي والدراسات والابحاث الامريكية والاوروبية ان العالم اصبح مهددا اكثر من ذي قبل بسبب الاحتلال الامريكي للعراق، كما ان اسرائيل هي الدولة الاولى التي تهدد السلم العالمي، وليس حزب الله او حماس او سورية. تدمير لبنان وفلسطين، يُسوَّق اعلاميا ايضا على انه دفاع عن النفس من قبل اسرائيل، بدعوى اختطاف جنودها، في حين ان اسرائيل تختطف وتسجن وتقتل الاطفال والنساء والشيوخ والمدنيين. وتتصرف مثل ع